فى الصيف

لطه حسين

« فى الصيف » بعد « الأيام » دليل بعد دليل على ملكة اخرى كانت مجهولة فى هذا الذهن العجيب ! فقد كان عهد الناس بصديقنا طه عالما غزير البحر . وباحثا جرىء الرأى . ونافذا نافذ البصيرة . وجدليا دامغ الحجة : اما الكاتب الذى يستشف بالالهام حجب الغيب . وينمق بالخيال صور الحقيقة ، ويحيي بالعاطفة خمود الفكرة . فظل مغمورا بين الأديب الذى يبحث فى ضوء العقل . والاستاذ الذى يدرس فى حدود العلم . فلم يكد يظهر الا فى صفحات من ذكرى ابى العلاء نسى فيها المعرى وذكر نفسه . وفى مقالات نشرت فى السفور صور فيها عواطفه وحسه ، حتى نشرت (الايام) فعجب الناس ان يكون وراء هذا العقل المتمرد هذا القلب الثائر . واقبلوا فى دهشة يتعرفون الى طه التلميذ والأخ والزوج والوالد . ويتحدثون اليه فى منازله وبيادله وبين أهله ، فيجدون من اللذة فى احاديثه . امثال ماوجدوا من الفائدة فى بحوثه . ثم جاء كتاب اليوم قاطعا فى الدلالة على بلوغ هذه الشخصية الأدبية الغاية فى كل ناحية من نواحى الأدب ، حتى الناحية التى لا يغنى فيها الخيال عن الواقع ، ولا السماع عن النظر !

قرأ (فى الصيف) اديب كبير فطلب الى طه فى شىء من الدعابة ان يترك العلم الى القصص ، وتقرأ أنت (فى الأدب الجاهلى) فتقول هذا اختصاصه وتلك مادته ، ولعلك اذا سمعته يحاضر أو قرأته يناظر تقول هذا عمله وهذه غايته . وابلغ آيات العبقرية ان تكون فى كل مادة اصيلة . وفى كل موضوع سامية . وفى كل غاية مبرزة .

***

طه قصصى من طراز خاص . أو هو لم ينشأ اليوم أن يكون على غير هذا الطراز . فالأيام وفى الصيف طرائف شتى من الذكريات والتأملات والملاحظات أتالت فى وقت الفراغ على ذهن شديد النفاذ ، وفكر دقيق الملاحظة . وشعور صادق الحس ، ثم ألف بينها خيال كروح المنطق فيه لذة وفيه عقل ، وأبان عنها أسلوب كأسلوب الحديث فيه طلاوة وفيه فضل ، ثم تقرأ قليلا واذا بك متصل بالكاتب ، مغمور بشعوره ، مسحور بحديثه . مشغول بتفكيره ، يخرج بك من موضوع الى موضوع ، وينقلك من موضع الى موضع ، دون أن يدع لك السبيل الى استرجاع الذكريات التى هاجها بذكرياته . واستقبال الخواطر التى جددها بخواطره . فأنت منه كما تكون بين البحر الداوى لا تدرى بماذا استولى على مشاعرك ؟ أبجلاله أم بجماله أم ببسمه أم بروعته أم بكل أولئك جميعا ؟ ثم تفرغ من القراءة وتعود الى نفسك فتقول : ربما ولدت هذا المولد ؛ ونشأت هذا المنشأ . ودرست هذه الدراسة ، وسحت هذه السياحة ، ورأيت هذه الصور . وعرضت لى مثل هذه الخواطر ، ونعمت بمثل هذه الأسرة ، ولكن أولئك كلها جف فى خيالى كما يجف نمير الماء فى العود الذابل ، وماتت فى خاطرى كما يموت رنين الصوت فى الصخر الأصم ! ولكنها فى الأيام احيا ما تكون فى ذهن . وفى كتاب « فى الصيف » أزهى ما تكون فى خيال !! ذلك اذن هو الفن الذى يخص الله به انسانا دون انسان . وذلك اذن هو ما ينقص الناس فيجدونه فى الفنان !!

***

« فى الصيف » لا يروعك منه الحادث . ولا تدهشك المفاجأة . ولا تشوقك العقدة ، ولا تفتك الصنعة ، فانه كما قلت لك مجموعة من الذكريات والتأملات يتشقق بعضها من بعض كما تتشقق الأحاديث . وانما يأخذ بلبك منه الصدق فى تصوير الفكرة ، والحذق فى نقل الشعور ، والفن الذى تشتد فى المجتمع حتى تشتط . وترق فى الأسرة حتى تضعف . والروح التى تحلق فوق الاحداث متمردة . وتخفض الجناح لأهواء الطفلين الحبيبين حانية ، والألمعية التى تصور بالظن فلا تخطئ اليقين . وتسمو على جناح الخيال فلا تفوت الحقيقة ، والأسلوب الذى يحار فى تعريفه البيان المكتوب ، وأقل ما يصفه به الكاتب العجلان أنه تفصيل فى غير اطالة ، وبساطة فى غير ابتذال ، وتدفق فى غير كدورة ، وجدة فى غير مجلبة . واهمال